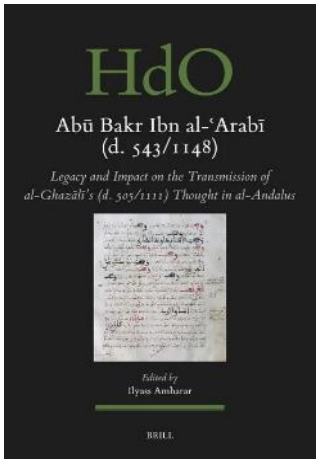


Ilyass Amharar (dir.) - *Abu Bakr Ibn al-'Arabi (d. 543/1148): Legacy and Impact on the transmission of al-Ghazali's (d. 505/1111) Thought in al-Andalus*. (Leiden: Brill, 2024), 247 p.

صدر عن دار بريل العريقة، بثلاث لغات – العربية والإنجليزية والفرنسية – كتاب هام في بابه عن القاضي والفقيه، المفسر والمحدث أبو بكر ابن العربي المعافري (468 هـ- 543 هـ) الإشبيلي المالكي، دفين فاس. والكتاب مؤلف جماعي أشرف على تنسيق مواده الباحث د. إلياس أمحرار.

وجاء هذا الكتاب ثمرة لمجهود علمي جماعي؛ حيث قدم مجموعة من الباحثين من مختلف الحقول المعرفية سنة 2022 أعمالهم في يوم دراسي بالرباط حول تجربة القاضي أبو بكر ابن العربي، وكانت المناسبة تخليد ذكرى مرور 900 سنة على وفاته. ويعتبر هذا العمل تجميعا لإسهامات الباحثين في أعمال هذه الندوة؛ حيث طرحت أثناءها مجموعة من الأسئلة حول الإنتاج المعرفي لابن العربي، والتي مازالت تقلق أذهان المتخصصين والمشتغلين بالتاريخ الفكري والعلمي في الغرب الإسلامي، ومن بينها: كيف نقرأ اليوم أعمال ابن العربي؟ وكيف نفهم الحركة العلمية في الغرب الإسلامي في زمنه وبعده في ضوء نقله للمعارف ولأمهات الكتب من المشرق بعد رحلته المشهورة؟ ما دوره في انتشار العقيدة الأشعرية في المغرب والأندلس؟ وإلى أي حد تأثر فكر ابن العربي بأستاذه أبي حامد الغزالي وكيف يتجلى حضوره في فكره؟

تتجلى أهمية الكتاب من جهة في القامة العلمية التي تدرسها مقالات الباحثين من مختلف الجوانب المعرفية. لكن الكتاب من جهة أخرى ليس أول ما كتب عن ابن العربي، بيد أن مقاربته المنهجية المتعددة، الكمية والكيفية، الوصفية والتحليلية، في دراسة فكر هذا العالم الموسوعي من لدن الباحثين تسهم – ربما أكثر من غيرها – في الإحاطة بكل الجوانب المعرفية والأسئلة العلمية التي خصص لها ابن العربي جهده وفكره. وقد جاء الكتاب في هيئة تصنيف مرجعي مهم كفيل بإرشاد المتخصصين وتوجيه الباحثين في أعمالهم.

إن القاضي أبا بكر ابن العربي الذي عاش في القرن السادس الهجري هو صاحب فكر وتأثير قوي على علوم شتى في عصره. ولقد أطرت رحلته المشهورة إلى المشرق إنتاجه العلمي اللاحق؛ فألف ودرَّس بعد رجوعه منها علم الكلام وأصول الفقه، والتفسير، والحديث، والتصوف. كما كانت له إسهامات في التربية واللغة والتاريخ والأدب وأدب الرحلات.

ويتفق العديد من الباحثين على القول بأن لأبي بكر ابن العربي الدور المحوري في انتشار المذهب

الأشعري في الأندلس، وأنه قد كان له الفضل في التعريف ببعض إشراقات المتصوفة المشارقة وببعض آراء علماء المشرق الفلسفية السائدة في زمانه وبالمذاهب المتباينة التي عرفها المشرق الإسلامي؛ فنقدها ابن العربي وجادل أصحابها.

كما أدخل مؤلفات عديدة من المشرق إلى الغرب الإسلامي، وكثير منها صار متداولا في القطر المغربي بفضله، نذكر منها كتاب **الإرشاد** للإمام الجويني وكتاب **الإحياء** للغزالي...الخ.

ومن مجهودات ابن العربي الفكرية أن كان له مشروع علمي في إصلاح المذهب المالكي لولا الظروف السياسية في عهده زمن المرابطين. وقد نفسر غنى وتركيب شخصية ابن العربي العلمية في كونه قد تتلمذ على يد العديد من كبار العلماء في عصره، من أمثال الطرطوشي والغزالي. وقد كان للغزالي تأثير هام في فكر ابن العربي وكتاباته.

يجمع الكتاب بين دفتيه إسهامات غنية تبرز مدى أهمية إرث ابن العربي الغزير والمركب في مجالات الفقه والكلام والفلسفة، وتقف بعضها عند علاقته بأبي حامد الغزالي وتأثره به؛ كما يسلط الكتاب الضوء على تأثير ابن العربي الممتد إلى اليوم في المغرب الإسلامي.

الإسهام الأول للباحثة ماربيل فيرو (Maribel Fierro)، قدمت من خلاله دراسة مهمة حول أعمال أبي بكر ابن العربي استنادا إلى مقاربة كمية مقارنة، أوضحت فيها مدى غزارة إنتاجه العلمي مقارنة بمعاصريه. حيث أحصت عدد كتبه في كل حقل من الحقول العلمية. إذ تعد كتب ابن العربي بالمئات (هذا ما نعرفه لحد الساعة) حسب ما توصلت إليه الباحثة، وتتنوع بين الفقه (27 عملا) والحديث (26 عملا) والتصوف (15 عملا) وعلم الكلام (11 عملا) وعلوم القرآن (10 أعمال) والتاريخ والجغرافيا (8 أعمال) والأدب (7 أعمال) ...الخ، بالإضافة إلى العشرات من المؤلفات في الشعر والفلسفة واللغة. كما أنها أحصت الكتب التي وصلتنا من خلاله وعددها لا يقل أهمية عن مؤلفاته.

وقارنت الباحثة العدد الكبير من مؤلفات ابن العربي بما أنتجه معاصروه، من أمثال ابن حزم وابن عربي وابن رشد الحفيد؛ وفي الحقيقة فإن أعمال هؤلاء لا تقل غزارة وأهمية عن أعمال القاضي، بيد أن هذه الدراسة الكمية المقارنة تعتبر إضافة بحثية مهمة، ذلك أنها تسهم في تقديم وصف للحركة العلمية في الغرب الإسلامي خلال القرن الحادي عشر الميلادي.

الإسهام الثاني بقلم الباحثة دلفينا سيرانو-رووَانو (Delfina Serrano-Ruano)، وهو عبارة عن مقالة مهمة سلطت الضوء فيها على ملامح فكر ابن العربي عبر مختلف القضايا التي اهتم بها، ومن خلال مقاربة تسعى لفهم آليات تفكيره مستحضرة السياق التاريخي الذي وسم عصره المضطرب سياسيا.

ونتساءل إلى أي حد كان السياق السياسي الذي عاش فيه ابن العربي مؤثرا في اختياره لقضاياه العلمية التي خاض فيها؟ وقد ذكرت الباحثة بعضها: الزنا، الصلح، التحكيم، الذمة، التكفير، التجسيم وأسماء الله الحسنى؛ وهي قضايا يتشابك فيها الهم المعرفي الكلامي بالفقهي وباللغوي في فكر ابن العربي.

شارك الأستاذ جعفر ابن الحاج السلمي بمقالة متميزة تناولت بالدراسة مفهوم الإلحاد في فكر ابن العربي. ولا شك أن الاشتغال على المفاهيم يعد مفتاحا في غاية الأهمية لفهم فكر عالم من العلماء وفهم تطور السياقات من خلال تتبع تغير المعنى الذي يحمله المفهوم نفسه ومن خلال تتبع تغير توظيفاته.

إن المفاهيم التي نظمت فكر ابن العربي حسب المقالة هي مفاهيم كلامية سنية أشعرية. فأشار الباحث منذ البداية إلى أن تحديدا لمفهوم السنة كان غائبا في أعمال ابن العربي على غرار البدعة والإلحاد؛ لكنه في المقابل سعى لتحديد مفاهيم أخرى أساسية في علم الكلام، كالإيمان والكفر، والشرك والنفاق، والفسق والزندقة.

يضيف الباحث، وهو يقف عند توظيفات مفهوم الإلحاد في علم الكلام، أن الأشعري لم يستعمل المفهوم في مقالات الإسلاميين لكنه وظفه لاحقا تلاميذه في نسقهم الفكري، وأضاف أن مالكية الأندلس لم يجعلوه مفهوما أساسيا عندهم كما لم يحدد ابن حزم معنى مضبوطا لمفهوم الإلحاد، فقد شمل عنده طوائف متباينة كالإسماعيلية والقرامطة والفلاسفة... الخ.

وإذا كان مفهوم الإلحاد مفهوم مركزي في فكر ابن العربي فقد توسع في استعماله كما توسع فيه ابن حزم، فهو عنده مفهوم فضفاض يشمل كل ما هو غير سني. ذلك أنه اصطدم هو الآخر بطوائف عديدة في المشرق، من الفلاسفة والإسماعيلية... الخ. وكان حذرا من التصوف الباطني والفلسفي، ومنه نفهم نقده للغزالي على سبيل المثال. وإن دراسة توظيفات مفهوم الإلحاد يسمح للباحث بالتعرف على الأفكار والتيارات العلمية والمذاهب السائدة في الغرب والشرق. ويشير جعفر ابن الحاج السلمي في الأخير، الى أن ابن العربي انتقد جميع الطوائف وأدخل كثيرا منها في دائرة الإلحاد، لكنه سكت عن طائفة المهدية التابعة لابن تومرت، كما سكت عن إحراق كتاب **الإحياء**. وهنا نتساءل معه، كيف أثرت الظروف السياسية المضطربة في مواقفه العلمية؟ وكيف نفهم سكوته في ضوء هذه الاضطرابات السياسية؟

وهي أسئلة يحملها القارئ معه وهو يطلع على مقالة الباحثة كينيث گاردن (Kenneth Garden)، التي وقفت عند بيان منهج النقد الذي اعتمده كل من ابن العربي والطرطوشي، مبينة أن كلاهما قابلا الغزالي في نفس الفترة الزمنية تقريبا. لكن يبدو حسب هذه الباحثة أن الطرطوشي اعتبر الغزالي عالما مبتدئا قليل

الشأن ودعا إلى إحراق **الإحياء**؛ بينما اعتبره ابن العربي قيمة علمية كبيرة، أثرت في فكره وفي كتاباته لاحقا رغم انتقاده له.

وفي مقالة عبد الغني ادعيكل، نتعرف على ابن العربي الأصولي وإسهاماته في هذا المجال المعرفي؛ حيث خاض ابن العربي في مجال أصول الفقه طلبا وتقعيدا وتأليفا. مع أن ابن خلدون – يشير الباحث – يرى أن المالكية ليسوا بأهل نظر! وفي الحقيقة ليس ابن خلدون وحده، فمعروف أن كثيرا من العلماء (الإمام المقري) يرون أن علم الأصول عند المالكية في الغرب الإسلامي ضعيف الحال.

وتأتي مقالة الأستاذ ادعيكل لتبرهن على ما هو خلاف لذلك، ولتبين مدى عراقة علم أصول الفقه في القطر المغربي الأندلسي؛ من خلال بيان المعرفة الأصولية عند ابن العربي، من خلال شيوخة ومن خلال كتب التراجم والفهارس، ثم من خلال المصنفات الأصولية وأخيرا من خلال توظيفه لعلم الأصول وترجيحاته وتفرده. بمعنى أن ابن العربي، في نظر الباحث، يعد في مصاف المبدعين في هذا الفن على غرار الباقلاني والجويني والغزالي.

ويبين الأستاذ عبد الله التوراتي في مقالته استنادا إلى مقاربة تحليلية، عن حلقات الوصل في الدرس الأصولي بين ابن العربي والغزالي من خلال جملة من الأنظار الأصولية عند ابن العربي، المعروضة في كتابه **الاستشفا من كتاب الشفا**. ومعروف أن **الاستشفا** هو تلخيص لـ **نكت شفاء الغليل** لأبي حامد الغزالي. بيد أن المقالة تشير – على عكس ما دافع عنه الأستاذ ادعيكل – إلى أن **الاستشفا** ألف في بلاد ''كانت معاقد علم الأصول فيها ضعيفة المدارك، بعيدة عنهم حسا ومعنى.''

شارك إلياس أمحرار، منسق مواد هذا الكتاب الجماهي، بمقالة يعيد فيها إعادة صياغة الصلة بين ابن العربي وأساتذته في علم الكلام من خلال دراسة جينيالوجية. وهي إضافة مهمة جعلت من نتائج المقالة مادة أولية يضعها بين يدي الباحثين، تسمح لهم بتتبع مسارات الفكر الكلامي عبر الأجيال من المشرق وصولا للمغرب عن طريق ابن العربي.

وأسهمت أيضا مقالة فريد بن عبد العزيز الزامل السليم في إبراز جهود أبي بكر ابن العربي في النحو واللغة من خلال قراءة فيما كتب عنه؛ فهو عالم موسوعي تعرض لمسائل نحوية ولغوية، ويمكن أن نقف عند إسهاماته في مؤلفه **أحكام القرآن** أو مؤلفات أخرى لا تقل أهمية. وكذلك بينت مقالة الدارسة برونا سوراڤيا (Bruna Soravia)، كيف تمكن ابن العربي من الأدب والشعر استنادا إلى شهادات بعض معاصريه.

المقالة ما قبل الأخيرة، هي بقلم نور الدين الحميدي، ويبرز فيها ريادة ابن العربي في مجال المسلسلات الحديثية بالغرب الإسلامي وإبداعه على المستوى المنهجي في تأليف مصنفات في هذا الفن، كما بين أثر

إدخاله لبعض كتب مشايخه المشارقة في هذا الباب إلى الأندلس. ويشير الحميدي إلى أنه قد سار على نهجه في هذا الحقل العلمي الدقيق جماعة من كبار حفاظ الأندلس ومحدثي المغرب، فأثر في مسار هذا العلم في حواضر المغرب والأندلس.

وفي الأخير عرض محمد علوان في مقالته العميقة مخطوطات ابن العربي بخزائن سوس. وتكتسي المقالة أهمية خاصة بالنسبة لكل باحث يريد الاطلاع على هذه النفائس اعتبارا لقيمتها التاريخية والعلمية، وقد لفت انتباه الباحثين إلى ما تزخر به هذه الخزانات من نوادر المخطوطات الأندلسية. وهي مازالت في حاجة للاكتشاف والدراسة والتحقيق.

سعت معظم مقالات الكتاب التي عرضنا بإيجاز شديد لأهم مضامينها إلى إعادة النظر في جوانب مختلفة من فكر أبي بكر ابن العربي وتراثه. وكان واضحا من خلال المنهجية التي اعتُمدت في الكتاب أن الباحثين سعوا إلى محاولة قراءة هذا التراث قراءة موضوعية؛ فكانت قيمتها المضافة أن ربطت فكر ابن العربي بسياقاته الاجتماعية والسياسية والعلمية، ليصير الكتاب مادة مرجعية مهمة بالنسبة للمؤرخين والدارسين للعلوم الإسلامية والاجتماعية على حد سواء. فالكتاب يزخر بمواد ذات طبيعة تاريخية تهم تاريخ الأفكار وتاريخ فكر القطر المغربي. كما يزخر كذلك بمواد علمية دقيقة في علم الكلام والأصول تنفع الدارسين المتخصصين. وهو يعطي كذلك نبذة عن الحياة الاجتماعية العامة في عصر ابن العربي.

لا يعد ابن العربي حلقة وصل بين الشرق والغرب فحسب، حيث أبدع هذا العالم –كما بينت مقالات الكتاب– علما غزيرا، فكان مجتهدا وأصوليا وكلاميا وناقدا؛ له رأيه في قضايا معرفية متعددة ومتشعبة وكان صاحب نظر. ويفترض بعض الباحثين أن مكانته السياسية ساعدته في بروزه كعالم وقاض له وزنه، كما ساعدته قبل ذلك هذه المكانة في التمكن من الذهاب إلى المشرق الإسلامي وطلب العلم هناك على يد كبار العلماء الذين أثروا في فكره، فنقل عنهم ونقدهم وأبدع، وفي مقدمتهم أبو حامد الغزالي، فابن العربي ولد في بيت علم وجاه ورياسة. لكن وإن سلمنا بهذه الفرضية، فهذا ليس سببا في الانتقاص من قيمة إسهاماته العلمية، خصوصا وأن تدوينه وتأليفه للعلوم جاءا في ظروف تاريخية معروفة، حيث شهد الغرب الإسلامي– الأندلس خصوصا – حالة سياسية غير مستقرة من الفرقة والانقسامات والنزاعات والاغتيالات، وهي حالة لا تعكسها الجهود العلمية التي بذلها علماء المغرب والأندلس في تلك الحقبة الزمنية، على رأسهم أبو بكر ابن العربي.

كان ابن العربي ابن زمانه بصيرا بدنيا الناس وواقعهم وأحوالهم، جادل طوائف عصره وتفاعل مع قضاياهم وردَّ عليها؛ كما كانت له رؤيته الخاصة في تدريس العلم، ذكرها صاحب **المقدمة** واستحسنها. وكان من تلاميذه كبار العلماء لاحقا من أمثال القاضي عياض وابن بشكوال والإمام السهيلي. ويعد تراث ابن

العربي نموذجا قويا للحالة المشرقة التي ميزت العلوم الإسلامية، وهي حالة ''التداخلية'' بتعبير الفيلسوف طه عبد الرحمن، التي وسمت النسق الجامع للعلوم في التراث الإسلامي فيما مضى؛ إذ كان المنهج في المعرفة الحفاظ على النظرة الكلية للعلوم ووحدة المرجعية، فجاءت العلوم الإسلامية متكاملة فيما بينها، تخدم بعضها بعضا.

نجمة الزغريوي
باحثة في سلك الدكتوراه،
جامعة محمد الخامس بالرباط